

ما زلنا مع حلمنا الجميل وأمنيتنا الرائعة.. <? prefix ecapseman:lmx? />

أن نرى أبناءنا يفكرون بطريقة موافقة للقيم العليا، ونشعر بأحاسيسهم ومشاعرهم تنبض دائماً بأهيمه وضرورة تلك القيم وأثرها على أنفسهم على الآخرين، ونرى ذلك كله يترجم في أرض الواقع على هيئة سلوك راق وأفعال رائعة متوافقة مع القيم.

والأجمل والأروع أن نغرس باستمرار الحافز الداخلي لديهم والذي يدفعهم دائماً إلى تمثل القيم في حياتهم وسلوكهم. ولكي يتم لنا ذلك إن شاء الله؛ لابد من بناء منظومة القيم داخل نفوس أبنائنا وأن نبذل الجهد والوقت في ذلك، وهذا البناء يتكون من عدة ركائز، تحدثنا في مقال سابق عن الركيزة الأولى وهي التفكير القيمي، وفي مقالنا هذا نتناول الركيزة الثانية، وهي:

الركيزة الثانية: الإحساس القيمي:

إن حياة الطفل للتفكير القيمي فقط لا يجعل منه شخصية قيمية؛ لأن مجرد معرفة الصواب والخطأ لا يعني أنه سيلتزم بالقيم في كل موافقه، خاصة إذا تعارضت هذه السلوكيات القيمة مع مصالحه الشخصية، أو مصالح من يهمله أمرهم.

والإنسان كما سبق وبيننا هو وحدة متشابكة من المشاعر والأفكار والاعتقادات، تتفاعل فيما بينها؛ لتنتج السلوكيات الظاهرية، ولذلك؛ فإن المكون المشاعري أو الإحساس القيمي من المكونات المهمة للشخصية القيمة، وبالتالي فإن محاولة تهذيب هذه المشاعر وضبطها قيمياً جزء لا يتجزأ من عملية التربية القيمة.

ماذا نقصد بالإحساس القيمي؟

ونقصد به المشاعر والانفعالات العاطفية التي تصاحب عملية التفاعل مع القيم، فكما ذكرنا أن عملية القيم تبدأ بتحديد الصواب والخطأ، لكن لكي يتحول ذلك إلى سلوك قيمي؛ لابد أن تصحبه مشاعر تدفع الإنسان لفعل الصواب ومشاعر تدفع الإنسان للكف عن الخطأ.

وقد اتضح لنا أنه لا يكفي الإنسان ملاحظة وجهات النظر المختلفة، دون أن يستطيع أن يشعر بمشاعر الآخرين. وقد ثبت علمياً أن أهم ثلاثة مشاعر انفعالية تختص بتطور القيم؛ هي: التعاطف (التراحم)، والإحساس بالذنب، والخجل.

فالحياء (الخجل) يبدأ في الظهور في منتصف التعليم الابتدائي؛ حيث يبدأ الأطفال في الشعور بالإحراج عندما لا يستطيعون استيفاء المعايير القيمة التي وضعها الوالدان والمدرسون.

أما الشعور بالذنب؛ فإنه ينشأ عندما يبدأ الأطفال في وضع معاييرهم الخاصة للسلوك، وهو شعور بعدم الارتياح عندما يكشف الطفل بأنه سبب معاناة لإنسان آخر، أو تسبب في إحداث ألم له.

إن هذين الشعورين - الحياء والإحساس بالذنب - بالرغم من كونهما سلوكين سلبيين، إلا أنهما علامة على أن إحساس الصواب والخطأ يتكون، وهو ما يتنبأ بتحسن سلوكياتهم المستقبلية، ويدفعان الأطفال إلى عدم ارتكاب السلوكيات التي تخالف القيم التي تربوا عليها.

على أن التعاطف يعد "أبو المشاعر" القيمة كلها، وعامل رئيسي في بروز الإحساس القيمي.

التعاطف أهم المشاعر القيمة:

يعد التعاطف كما قال علماء النفس هو "أبو المشاعر" القيمة، فالإنسان ما لم يتعاطف مع الطرف الآخر؛ فلن يستطيع أن يأخذ في حسابه وجهة نظره، وإن أخذها بصورة معرفية؛ فإن انطباع ذلك على السلوك سيكون غير ظاهر بالمرّة [دليل التنمية الاجتماعية: فترة منظور الحياة (وجهات نظر في علم النفس التنموي)، فنستفاد من لفظة "ميشال Hersen".

فمثلاً؛ الطفل الذي سيمتتع عن الانتقام ممن ظلمه، لن يستطيع أن يكون بهذا التسامح ما لم يشعر بمعاناة الطرف الآخر، ويتأثر نفسياً بمعاناته، فهذا التعاطف هو الذي سيدفعه إلى التجاوز عن رغبة نفسه في الانتقام، والتصرف وفق القيم؛ كما قال: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} [النحل: ٦٢١].

معنى التعاطف:

التعاطف هو نوع من الاستثارة الانفعالية التي تحدث في داخل الشخص، عند تعرضه لتجربة شخص آخر، وهي تعكس دافع داخلي للاهتمام بذلك الشخص ومساعدته، أو هي استجابة مشاعرية تجاه محنة طرف آخر أو معاناته.

وبما أن التعاطف هو نوع من الاستثارة الانفعالية؛ فإنه غالباً ما تصحبه أعراض جسدية انفعالية؛ مثل: تعبيرات الوجه، وزيادة دقات القلب، وارتفاع ضغط الدم، وزيادة سرعة التوصيل الجلدي، وكل هذا يعني أن التعاطف لا يقف عند مستوى التفكير، بل يتعداه إلى درجة الإثارة المشاعرية Arousal Affective.

ولذلك؛ لا بد أن تحرص البرامج التربوية القيمة على مخاطبة العاطفة كما تخاطب العقل، فالشخصية القيمة لا بد أن تشعر بالمشاعر التي تدفعها للسلوك القيمي.

فإذا أردنا تعليم الأبناء التصديق على الفقراء؛ فلا بد للأم أن تحكي لولدها معاناة المتسول، وكيف جعلته الظروف يمد يده للناس؛ وبهذا سيتكون لدى الطفل مشاعر التعاطف مع الفقير، ممتزجة مع سلوكه بالتصدق عليه؛ مما سيرسخ هذه القيمة لديه، ويجعله طوال عمره متصدقاً معطاء للفقراء؛ لأنه وفي كل مرة يرى فقيراً يسأل الناس، يتذكر ما حكته له والدته قديماً؛ فيشعر بالمعاناة التي يعيشها هذا الفقير، فيندفع للسلوك القيمي كنوع من تخفيف هذه الاستثارة العاطفية داخله.

تحذير:

لكن نود التنويه على أمر في غاية الأهمية، وهو أن الإفراط في بث هذه الاستثارة التعاطفية في بداية تربيتنا لأطفالنا؛ مما يعرضهم للمشاكل العاطفية في مستقبلهم يؤدي بهم إلى الحساسية الزائدة من الآخرين oversensitivity وخلال تكوين علاقاتهم مع أقرانهم ومجتمعهم بصفة عامة [دليل التنمية الاجتماعية: فترة منظور الحياة (وجهاً نظراً)]. [في علم النفس التنموي)، فنسنت فان لوفين، ميشال Hersen

تطور الجزء المشاعري لدى الأطفال:

يبدأ الأطفال عن طريق الاحتكاك بالوالدين - خاصة الأم - في التعرف على المشاعر المختلفة التي تتناهبهم؛ من فرح وحزن وخجل، ثم يتولد مع الوقت القدرة لدى الطفل للتفريق بين هذه المشاعر المختلفة.

يبدأ الجزء المشاعري المتعلق بالقيم في الظهور في صورة تأثر نفسي ببضعة أحداث تحدث للطفل؛ كأن يزجره والده، أو يصدم رأسه بشيء، أو يضحك الآخرون على سلوك قام به، ثم يتطور بعد ذلك ليخرج في صورة اهتمام تعاطفي بمصالح واحتياجات الآخرين.

ويبدأ الطفل في تفهم المشاعر المختلفة من حوله منذ المولد وحتى نهاية السنة الأولى، ثم مع بداية السنة الثانية وقدرته على استخدام الرموز؛ يبدأ الطفل في تفهم مشاعر الطرف الآخر، بل ويبدأ في التحدث عن ذلك، وخلال ربيع الثاني أيضاً يبدأ في إظهار سلوكيات التعاون والمشاركة والمساعدة.

ومن ثم؛ فإن السنة الثانية من عمر الطفل هي السنة الخطيرة في التطور القيمي لأي طفل، حيث يتعلم أن يتفهم وجهات نظر الآخرين، ثم يتعلم أن يشعر بمشاعرهم، ثم يظهر لهم سلوكيات العناية بهم كنتيجة عن هذا الفهم وهذه المشاعر.

ولذلك؛ على الآباء والأمهات أن يهتموا في مثل هذه السن بتعليم أولادهم المشاعر المتعلقة بالقيم، وأهمها التعاطف والإحساس بالذنب تجاه الأفعال الإيجابية والأفعال السلبية تبعاً، ولكن دون إفراط أو تفريط.

العوامل المؤثرة في تكوين الإحساس القيمي:

وهما عاملان اثنان، يؤثران في تكوين ذلك الإحساس لدى الأطفال:

الارتباط القوي المتوازن بين الطفل وبين الأم:

فقد أثبتت الأبحاث العلمية، أن الارتباط القوي والمتوازن بين الطفل والأم له تأثير كبير على تكوين الإحساس القيمي، والذي سيظهر فيما بعد في صورة سلوكيات قيمة تجاه الآخرين؛ كالتعاون والمشاركة والمساعدة. أما الأطفال الذين كان ارتباطهم بأمهاتهم ضعيفاً أو زائداً عن الحد، ومصحوباً بالتدليل المفرط؛ فقد ظهرت عليهم فيما بعد سلوكيات عدوانية، وبدا عليهم قلة الاكتراف بمعاناة الآخرين، وكلما كانت التربية عنيفة كلما كان المكون التعاطفي لدى الطفل ضعيفاً، وقلَّ عنده الاهتمام بمعاناة الآخرين ومساعدتهم، بل ونما عنده الاستعداد للاشتباك مع أقرانه والاندفاع في مشاحنات مضرّة به وبمن حوله.

ولاشك أن هذه التصرفات ستجعل أقران الطفل يلفظونه ويرفضون مصاحبته؛ مما سيعمق المشكلة أكثر، ويزيد من أفعاله العدوانية تجاههم ... وهلم جرا.

صعوبات التعلم:

فالأطفال الذين يعانون من صعوبات في التحصيل المدرسي؛ يعانون من ضعف العلاقات الشخصية والاجتماعية، لأن صعوبات التعلم تضعف من قدرة الأطفال على تفهم مشاعر وأفكار الآخرين؛ وبالتالي تكون دائماً تقييماً لهم للمواقف الاجتماعية غير سليمة.

وقد ثبت ذلك عندما تعرّض مجموعة من الأطفال لمعضلة قيمية وهم يعانون من صعوبات في التعلم، فوجد أن معظم تفكيرهم القيمي ينصب على ذواتهم، وهم يعانون من ضعف المقدرة على تفهم مشاعر وأفكار الأطراف الأخرى. كما أن ضعف علاقاتهم الاجتماعية نتيجة ضعف تطور مستوياتهم المعرفية قد أدى بهم إلى سلوكيات غير قيمة. وهذا لا يعني أنهم ينتهجون هذه السلوكيات مع الجميع، وإنما ثبت أنهم ينتهجونها مع مجتمعهم، لكنهم في مجموعاتهم الصغيرة تظهر منهم سلوكيات تعاضدية وتعاونية وتشاركية كبيرة.

كيف نغرس الإحساس القيمي في الأطفال؟

وإليك عزيزي المرّبي عدداً من النقاط العملية، التي تساعدك على غرس الإحساس القيمي في أطفالك. احرص على إشراك الأطفال في أنشطة، يحاولون من خلالها التخفيف من معاناة آخرين؛ كالتخفيف عن صديق لهم في المدرسة أصابته مصيبة، أو فقد أحد والديه، أو رسب في الامتحان، أو يقومون بزيارة لملجأ الأيتام والتحدث معهم، وقم بعدها ببث مشاعر الرحمة في صدور هؤلاء الأولاد.

علّم أطفالك الاستراتيجيات الخاصة بالتكيف التعاطفي مع الآخرين، وكيفية الكلام معهم من خلال دورات تدريبية خاصة؛ ليتعلموا كيفية المواساة وكيفية الإحساس بالآلام الآخرين وأحزانهم. عندما تقوم بتفسير السلوكيات غير المرغوب فيها؛ ركّز على معاناة الطرف الآخر، فتساعد على تفهم الأطفال لآلام الآخرين، ثم قد بتوجيههم أنهم بسلوكياتهم السلبية قد يسببوا في تلك الآلام والمعاناة، وثبت أنه لو صحب ذلك نوع عقاب بسيط؛ فإن ذلك يدفع الأطفال للالتزام بالقيم وعدم تجاوز القواعد.

احرص دائماً على أن تسأل الأطفال عن وجهة نظرهم حول شعور الآخرين تجاه المواقف غير المرغوبة، كما لا بد أن تجعلهم يضعون أنفسهم مكان الآخرين، ثم يبدأون بإظهار مشاعرهم إن حدثت هذه السلوكيات السلبية في حقهم [كيف تغرس القيم في طفلك، د. محمد صديق].

كاتب المقالة : عمر السبع

تاريخ النشر : 12/11/2013

من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammedfarag.com